حـوار الدهشـة والرهبـة بيـن لحظتَـي انبثـاق: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ منذ ظهور الإسلام وإلى عصر النهضة

أحمد ماجد[1]

يدرس الباحث، في النصّ الذي بين أيدينا، حقبةً غلب عليها طابع التنافر الشديد بين المسيحيّة والإسلام؛ تنافرٌ تحوّل من صداميّة عَقَديّة إلى أخرى عسكريّة إبّان الحروب الصليبيّة التي مثّلت القطيعة الكاملة بين الفريقين، وهي المرحلة التي تكرّست فيها الصور النمطيّة عند كليهما. ويرى الباحث أنّ المسيحيّة المشرقيّة لعبت دوراً كبيراً في التأسيس لهذه القطيعة، لكنّها، إثر الحروب الصليبيّة وبعد سقوط القسطنطينيّة، أدركت أنّ هويّتها لا تتأصّل إلّا حين تنخرط في علاقة إنسانيّة وحوار صادق مع المسلمين. قبل هذا، لم يجد الحوار محلّاً حقيقيّاً له بين الإسلام والمسيحيّة إلّا بين أصحاب النزعات الروحيّة الذين تخطّوا شيطنة الآخر إلى حيث يمكن اللقاء.

الوقوف على الحوار الإسلاميّ– المسيحيّ، يقتضي الرجوع إلى اللحظة الأولى لانبثاق الدعوة الإسلاميّة، فهي جاءت في محيط جاهليّ، ولكنّه لم يخلُ من تقاليد دينيّة سائدة في الكثير من أنحاء الجزيرة العربية، حيث جرى اللقاء مع اليهوديّة والمسيحيّة، وهذا البحث سيحاول رصد موضوع الحوار، على أن يأخذ الإسلامَ والمسيحيّة كمثال حيٍّ عنه، حيث سيعرض مساره ومراحله، ويقف في محطّات أساسيّة فيه، وهو لا يدّعي أنّه يؤرخ لهذا الحوار، لأنّ هذا الكلام يستدعي استحضار الوثائق والأدبيّات التي عالجت هذا الجانب، وهي من الأمور التي تحتاج إلى مجهود كبير ومساحة واسعة لا يمكن لمثل هذا البحث أن يقوم به. هذا مع العلم أنّ الحديث عن الحوار يستدعي الحديث عن استراتيجيّته وغاياته، وبحاجة إلى تدقيق في المصطلح في المنظومات الداعية، كما هو يحتاج إلى معالجة دلاليّة، ليرى الباحث، هل بقي المصطلح على تشكّله الأوّل، أم أنّه تعرَّض للتبديل وللتغيير؟ فما يعرض اليوم في هذا المجال هل هو حوار بالمعنى الحقيقيّ؟ وما الغاية من إطلاقه؟ وهل هو من نتاج المنظومات الاعتقاديّة؟ أم هو مؤشّر على أزمة الديانات الداعية إليه؟ أم هو تعبير عن حداثة

(١) باحث في معهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة والفلسفيّة.

دينيّة تريد أن تعولم الأديان؟

أسئلة كثيرة، تُثار في وجه الباحث في هذا الموضوع، تستدعيه إلى الخوض في هذا الموضوع بحذر ودقّة، حتّى يعطي الصورة الأقرب إلى الواقع والأبعد عن التنظير العقائديّ، الذي يحاول أن ينطلق من الذات الباحثة، ليعتبر نظرته هي الأمثل.

أ- الحوار في البعد القرآنيّ

أولى القرآن الكريم الحوار أهمّيّة كبيرة، حيث تُظهِر المراجعة للآيات القرآنيّة الكريمة المتعلّقة بالحوار، تعدُّد مجالاته، إذ نرى حوار الله مع الشيطان[١] والأنبياء[٢] والعباد[٣] بالإضافة إلى حوار الناس مع الناس[٤]. ومن الناحية الدلاليّة، ارتبط الحوار في القرآن الكريم بعدد من المصطلحات، وهو ما انعكس في حقل معجميٍّ دالٍّ على الحوار من خلال بعض الألفاظ والعبارات، فوردت كلمة «قال» ومشتقّاتها ١٧١٣ مرة، منها ٥٤٩ مرّة كلمة «قال»، و٣٥٥ مرة كلمة «قالوا». كما وردت كلمة «جادل» ومشتقاتها ٢٩ مرة. ووردت كلمة «حاجَّ» ١٣ مرة، ووردت كلمة حوار ثلاث مرات[٥]، هذه المعطيات تُظهر الحوار وكأنّه كلمة مفتاحيّة، نستطيع من خلالها أن نفهم العقل الإسلاميّ المنفتح على الآخر، والراغب بالتعاطي معه وتفهّمه، ولعلَّ هذا من المحفزات، التي تدفع الإنسان إلى معالجة هذا الموضوع واستكشاف ما فيه.

١. الحوار ومعناه

الحوار من الحور وهو الرجوع إلى الشيء وعنه. وكلّ شيء تغيّر من حال إلى حال، فقد حار يحور حورا والمحاورة: مراجعة الكلام[٦]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ**﴾[٧] أي لن يرجع والمراد

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة **الأعراف**: الآيات ١١–١٨.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة **البقرة**: الآية ٢٦٠.

(٣) قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ سورة **طه**: الآيتان ١٢٥–١٢٦.

(٤) قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ سورة **الكهف**: الآية ٣٤.

(٥) راجع: محمد السماك، **مقدّمة إلى الحوار الإسلاميّ المسيحيّ** (بيروت: دار النفائس، ١٩٩٤)، الصفحات ٧٣–٧٤.

(٦) راجع: ابن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤)، مادّة «حار».

(٧) سورة **الانشقاق**: الآية ١٤.

الرجوع إلى ربّه للحساب والجزاء[١]. وقد ورد الحوار بلفظه ثلاث مرّات بصيغة الفعليّة[٢]، وأشار إلى نوع من أنواع تبادل الكلام ومراجعته، ولكنّه لم يشر إلى الحوار ببعده العمليّ، فالبعد الحقيقيّ للحوار يظهر في آيات أخرى، حيث يصبح مقدّمة لكلّ عمل غايته إقناع الآخر[٣] بالدين الإسلاميّ عبر الحوار الهادئ[٤]، الذي يهدف إلى استقرار المجتمع البشريّ والحفاظ عليه[٥]، لذلك هو وسيلة للتعارف وركن للمعرفة[٦]، والهدف منه إيجاد المساحات المشتركة[٧]، ولكن على أرضيّة الإيمان بالله والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والصبر[٨].

ويُلاحظ أنّ الحوار، كما قدّمه القرآن الكريم من خلال الواقع العمليّ، يحمل آثاراً إيجابيّة، وهو يقوم على أسس محددة لا توحي بالمخاصمة، لذلك وصف تلاميذ عيسى بن مريم عليه السلام بالحواريّين، والحوار في القرآن يقوم على الأركان التالية:

٢. التمهُّل والتفكُّر قبل الردّ

على المُحاور أن يتفهّم وجهة نظر الخصم وعدم التعجُّل بالردّ عليه، وانتظار الخصم لينهيَ حديثه، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾[٩]، وعليه أن يتكلّم بما يعلم، «فإن لم يعرف بما يجيب، لقصور علمه، فيجب أن يقول لا أعلم أو الله أعلم»[١٠].

٣. محاورة بأفضل الأسماء والألقاب وأجمل ألوان الخطاب

وهذا من العناصر النفسيّة المهمّة، التي تحفظ الودّ والمحبّة بين المتحاورين، وهذا ما تدلّ عليه القصّة القرآنيّة حول حوار لقمان مع ابنه، إذ يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ**

(١) راجع: محمّد حسين الطبطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، صحّحه وأشرف عليه الشيخ حسين الأعلمي (بيروت: دار الأعلمي، ١٩٩٧)، الجزء ٢٠، الصفحة ٢٤٣.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ سورة **الكهف**: الآية ٣٤. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ سورة **الكهف**: الآية ٣٧. وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سورة **المجادلة**: الآية ١.

(٣) قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ سورة **البقرة**: الآية ٢٥٦.

(٤) قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ سورة **فصّلت**: الآية ٣٤.

(٥) قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة **البقرة**: الآية ٢٥١.

(٦) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة **الحجرات**: الآية ١٣.

(٧) قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ سورة **آل عمران**: الآية ٦٤.

(٨) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة **البقرة**: الآية ٦٢.

(٩) سورة **الحج**: الآية ٨.

(١٠) أمين حلمي، **الحوار في القرآن الكريم (المناظرة والجدل والمحاجّة)**، (دار النهضة الإسلاميّة، ١٩٩٧)، الطبعة ١، الصفحة ٤٣.

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١). وهذا ما تظهره أيضاً الآية التي تتكلّم عن دعوة النبيّ يوسف عليه السلام لصاحبَي السجن(٢).

٤. الهدوء في أثناء الحوار

وهو من المبادىء الهامّة في كلّ عمل حواريّ، حتّى يستطيع المتحاورون إيصال أفكارهم بهدوء ودون انفعال، ويقول تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٣).

٥. بسط الوجه

ومن آداب الحوار بسط الوجه للخصم وإظهار المودّة واللطف معه، قال تعالى: ﴿ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلناس﴾(٤).

٦. عدم التعصُّب ونشدان الحقيقة

ومن آداب الحوار التزام الموضوعيّة والعدل والإنصاف، وقد أرشد القرآن إلى هذا الأمر بقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فالحقّ هو ضالّة المؤمن وعليه إذا وصل إليها أن يعترف بها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٥). ونلمح الكثير من الأمثلة حول هذه النقطة كحوارات الأنبياء مع قومهم، فهم أصّروا على الحوار معهم وإظهار الحقّ على الرغم ممّا وجدوه من إصرار على الباطل.

٧. إبراز الحقائق الثابتة

حيث على المحاور أن يتحلّى بالموضوعيّة في عرض رأيه، واعتماد البيّنة، فلا يتكلّم المؤمن دون قرينة أو إثبات حتّى لا يظلم الناس، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا

(١) سورة **لقمان**: الآية ١٣.
(٢) راجع سورة **يوسف**: الآية ٣٩، إذ يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.
(٣) سورة **لقمان**: الآية ١٩.
(٤) سورة **لقمان**: الآية ١٨.
(٥) سورة **آل عمران**: الآية ١٣٥.

﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

إذا خرج الحوار عن هذا الحدّ فهو جدل.

٨. الجدل

الجدل من جدل، ويقال: رجل جدل مجدال أي خصم مخصام، والفعل جادل يجادل مجادلة. وجدلته جدلاً، فانجدل صريعاً، وأكثر ما يقال: جدلته تجديلاً أي صرعته، فهو يحمل معنى المغالبة والسيطرة والتفوّق من أحد على الآخر، من هنا قيل: الجدل المفاوضة والمنازعة في القول على سبيل المغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله[٣]، فقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[٤] معناه – والله أعلم – أنّ الوثنيّين، وإليهم وجه الكلام في إلقاء هذه الحجج، يجادلون في ربوبيّته تعالى بتلفيق الحجّة على ربوبيّة أربابهم كالتمسُّك بدأب آبائهم، والله سبحانه شديد المماحلة لأنّه عليم بمساويهم ومعايبهم[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٦]، فمعنى قوله: إنّه يجادل في وحدانيّته تعالى في الربوبيّة والألوهيّة بغير حجّة يصحُّ الركون إليها بل عن تقليد[٧]. وقوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾[٨] المراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها ودفعها وهي المذمومة.

وهذا لا يعني أنّ الموقف من الجدال سلبيٌّ بشكل مطلق، إنّما يأخذ جوانبَ إيجابيّة إذا كانت الغاية منه إبراز كلمة الله، فالأنبياء اعتمدوا هذا المنهج في بعض الأحيان، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٩]، وهنا نلاحظ كلاماً ألقوه إلى نوح عليه السلام بعد ما عجزوا عن دحض حجّته وإبطال ما دعا إليه من الحقّ، وهو مسوقٌ سوْقَ التعجيز والمراد بقولهم، «بِمَا تَعِدُنَا» ما أنذرهم به في أول دعوته من عذابِ يومٍ أليم[١٠].

---

(١) سورة **الحجرات**: الآية ٦.
(٢) سورة **البقرة**: الآية ١١١.
(٣) راجع: ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، مادّة «جدل».
(٤) سورة **الرعد**: الآية ١٣.
(٥) الطباطبائي، **الميزان**، مصدر سابق، الجزء ١١، الصفحة ٣١٧.
(٦) سورة **الحج**: الآية ٨.
(٧) الطبطبائي، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ٢٢٩.
(٨) سورة **غافر**: الآية ٤.
(٩) سورة **هود**: الآية ٣٢.
(١٠) الطبطبائي، مصدر سابق، الجزء ١٠، الصفحة ٢١٥.

٩. المحاجّة

والحـوار قد يكون الحجاج، وهو يأتـي بمعنى اللغو كما قال تعالى: ﴿**قُـلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ**﴾[١]، وهنا لدينا إنكار لمحاّجة أهل الكتابِ المسلمينَ في الله سبحانه وقد بُيِّن وجه الإنكار، كون محاجّتهم لغواً وباطلاً،[٢]. كما يأتي بمعنى الدليل، فقال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[٣].

بالخلاصـة، للحوار في الإسـلام وجه إيجابيٌّ يجب على المتحاورين الالتفات إليه، وهو يقوم على أسس وحدة الله والإخلاص له، وإذا تعدّى هذا الأمر يكون جدلاً أو لغواً أو حجاجاً.

ب. المسيحيّة والحوار

على الضـفّة المقابلة، نجد المسـيحيّة قد ذهبت إلى الحديث عن وحدة الكينونة بين الأشـياء، وألغت المسـافة بين نطاق المحرّم على مسـتوى الوجود، فهي ترى أنّ المسـيح هو هيـكل الله، بالتالي فقد انتقلت وتحوّلت عن مفهوم الحرم الطقسـيّ والنجاسـة الشرعيّة، أي غدت في عالم الباطن، من هنا فهي لا ترى حقيقة خارج الكنيسـة، فهي ترفض كلّ ثنائيّة وتقوم على شـموليّة الملكوت الإلهيّ، وفي هذا السـياق يبدو العالمُ جزءاً من الكنيسـة، فهي تعيد تأسـيس حياة الإنسان عبر القربان الذي ينقل الإنسـان إلى حياة جديدة عبر المشـاركة في كنيسة المسـيح، ولهذا قال بولس: «**لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُـوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئـاً وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ**»[٤]. ويتّضـح ممّا جاء أنّ الرسـول يعلم بأنّ للمعموديّـة في العهـد الجديد نفس المكانة التـي كانت للختان في العهد القديم. وهذا ما توضـحه الرؤية المسيحيّة للخلاص، حيث يُعرّف بأنّه،

> **الانتشال من الهلاك وإعادة السلامة. وبما أنّ مصدر الهلاك هو الخطيئة والموت، فأوّل عناصر الخلاص الحقيقيّ الروحيّ هو التحرير من الخطيئة والموت. إنّ الخلاص الذي حصلت عليه البشرية استحقّه ونالَهُ في مصدره فصح يسوع المسيح، وهذا الخلاص يسري على كلّ واحد في المعمودية وفي الإيمان حيث يحرّر المسيحي من الخطيئة ويشارك في الحياة الإلهيّة، ويتمّ بدخول المسيحيّ في الحيـاة الأبديّـة بعد الموت، بالقيامة العامّة والمشاركة في أورشليم السماويّـة سفينة الخلاص... وسفينة الخلاص تدلُّ... على المعمودية والإيمان**[٥].

فالكنيسـة هي الأصـل، وهي تحتوي الحقيقة الكاملة عبر تجسـيدها لجسد المسـيح، وبالتالي هي لا

(١) سورة **البقرة**: الآية ١٣٩.
(٢) الطبطبائي، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣١٣.
(٣) الطبطبائي، المصدر نفسه، الجزء ٧، الصفحة ٣٦٦.
(٤) **غلاطيّون** ٦: ١٥.
(٥) صبحي حموي، **معجم الإيمان المسيحيّ** (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤)، الصفحة ٢٠٤.

تحتـاج إلى العالم الخارجيّ، والتفكير اللاهوتـيّ التقليديّ الحصريّ، يعتمد علـى العبارة التالية، «لا خلاص خارج الكنيسة»؛ بل مع مرور الأيّام، حصرت الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة إطارَ الخلاص هذا في المنتمين إليها دون سواها، إذ أقصت عنه، فضلاً عن أتباع الديانات الأخرى، المسيحيّين غير الكاثوليك الذين اعتبرتهم منشقّين عنها[١].

ومسألة الحوار لم تتطرّق إليها النصوص التأسيسيّة، وإن كان الواقع يتجاذبه اتّجاهان،

١. موقف المسـالمة: واعتبر أصـحابه أنّ العنف ليس أصـلاً في الدعوة التبشـيريّة، وهذا مـا ذهب إليه بولس الرسـول ويوحنّا الذهبيّ الفم والقدّيس باسـيليوس الكبـير، الذي رفض رغبة الأمبراطور بأن يُسـمّى الجنود الذين قتلوا في الحرب شـهداء[٢]. وقـال ترتليانوس، «إنّ ثمّة جنوداً مسـيحيّين كثيرين غير أنّهم كانوا يرفضـون القتال. بسـبب من ذلك استشـهد كثيرون»، وفي هذا المنحى قال العلّامة أوريجانوس «إنّ السيّد لمّا وبخ بطرس على قطعه أذن جنديّ، عنى أنّ المسيحيّين لا يحقّ لهم أن يحموا أنفسهم من أعدائهم وأنّنا لا نأخذ السيف ضدّ أمّة ولا نتعلّم الحرب»[٣].

ولكن هذا الحوار والسـلم، ليسـا أصـلاً منهجيّاً، إنّما هما خطوة باتّجاه نقل فكرة تجسُّد السيّد المسـيح وبالتالي الخلاص، فالمسيحيّة وضـعت بمشروعها الخلاصيّ النظامَ على مسار تاريخيّ يربط مصـير الإنسان بمصـير الإله المتجسّد، ودعت الفرد إلى اختيار شخصـيّ لحياة روحيّة داخليّة تصل إلى حـدود التضـحية بالذات من أجـل الآخرين[٤]، شرط أن تكون هذه الدعـوة قائمة على الإيمان النقيّ، «إيّاكم أن يأسركم أحد بالفلسفة، بذلك الخِداع الباطل القائم على سُنَّة الناس وأركان العالم، لا على المسـيح»[٥]، ومع أنّ بولس وضع حداً فاصلاً بين الأرضيّ والإلهيّ، إلّا أنّه، في سبيل اقناع الآخر، يذهب إلى نصوصـه ومرجعيّاته لاسـتمالته، وهذا ما فعله وسـط مجمـع الحكماء اليونانيّين المُسـمّى الأرياباغوس عندما استشهد ببيت شعريّ من أقليانتس يقول فيه: «... فيه حياتنا وحركتنا وكياننا... فنحن من سـلالته...»[٦]. من هنا يصـبح على المُحاور أن يتفهّم ثقافة الآخر ليستطيع أن ينقل إليه بشـارة المسـيح؛ يقول بولس الرسـول، «جعلت من نفسـي عبداً لجميع الناس حتّى أربح أكثر»[٧]، فالمنطق هو الربح وجذب الآخر إلى ساحة المسيحيّة، ويضيف، «وصرت للناس كلّهم كلّ

(١) جوزف كميل جبارة، **علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة**، ضـمن كتاب «واقع الحوار الإسلاميّ–المسـيحيّ» (بيروت: دار المشرق) الصفحة ٣٦.
(٢) راجع: جورج خضر، **الدين والدنيا** (البلمند: جامعة البلمند، ١٩٩٦)، الصفحة ١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣.
(٤) *Catéchisme de l´Eglise Catholiquem* (cite du Vatican, Mame- Plon), n 522.
(٥) **قولسيّون** ٤: ٢.
(٦) فريد غيث، **فلسفة الدين كسبيل إلى الحوار المسيحيّ الإسلاميّ**، رسالة أعدت لنيل شهادة دبلوم (بيروت: الجامعة اللبنانية) الصفحة ١٤.
(٧) **كورنثوس الأولى** ٩: ١٩.

شيء لأخلّص بعضهم بكلّ وسيلة. أعمل هذا كلّه في سبيل البشارة»[١]. وأضاف في نفس السياق، «صرت للذين بلا شريعة كالذي بلا شريعة، مع أنّ لي شريعة من الربّ بخضوعي لشريعة المسيح»[٢]، ويستشفُّ من هذه النصوص أنّ الأصل في الحوار مع الآخر وفهمه ليس الحوار للتوافق حول نقاط محدّدة، إنَّما هو السعي لضمِّه إلى الرعيّة والمشاركة بجسد المسيح المتمثّل بالكنيسة، لذلك صادر يوستينوس فكرة اللوغوس وجعل منها وجوداً متجسداً، فتحوّل اعتزازه بالفلسفة اليونانيّة، من التفكير بحسب اللوغوس إلى العيش وفق اللوغوس[٣]، وعندما يواجه الداعي صعوبة في إبلاغ الدعوة، عليه بالتوقُّف عنها لأنّ المدعوّ مرتبط بخطيئة لا يمكن أن يطهِّرها الربّ[٤].

٢. موقف المواجهة: واعتبر أصحابه أنّ الكنيسة هي صاحبة الحقّ والحقيقة. وابتداءً من مجمع نيقية، أخذت الكنيسة بمؤازرة السلطة السياسيّة، وما يدعم هذا الأمر الأحداثَ التي شهدتها القدس والإسكندريّة على أثر قرارات مجمع خلقيدونية. ففي القدس، رفضت المدينة، بسكانها ورهبانها، استقبال الأسقف الذي عيّنه المجمع فقامت ثورة عنيفة دفعت بالأمبراطور إلى إرسال قوّات مسلحة لفرض القرارارت بالقوّة فذُبِحَ الكثير من الرهبان[٥]. أمّا في القسطنطنية، فقد وصل الأمر بيوستنيانوس، وتحت شعار الوحدة بين الكنيسة والدّولة، إلى إصدار مرسوم يعاقب بالموت كلّ من يرتدّ إلى الوثنية بعد أن يكون قد تعمّد. ذلك أنّ النخبة المثقّفة في المدينة، كانت لا تزال تحمل باطنيّا بعض الأفكار الفلسفية القديمة[٦]، ووصل الأمر إلى حدّ أصدر الإمبراطور قراراً يمنع بموجبه التعليم الفلسفيّ، وأغلق آخر مدرسة للفلسفة اليونانيّة في أثينة سنة ٥٩٢م[٧].

ويُظْهِرُ ذلك أنّ النخبة، عند تحوّلها إلى المسيحيّة، عملت على فرض الدين المسيحيّ على رعاياها، وأقرّت مفهوم الحرب الدفاعيّة، التي تستهدف تعميم التبشير بالمسيحيّة. من هنا يمكننا أن نرصد الكثير من الأحداث التي جرت بعد انتصار الكنيسة المسيحيّة، حيث أصدر ثيودوسيوس، سنة ٣٩٣ مرسوماً يمنع اليهود من حقّ الاجتماع وحماية أملاكهم وأشخاصهم، وأقصاهم عن وظائفهم في البلاط الأمبراطوريّ. وحظر عليهم بناء مجامع جديدة، والزواج من مسيحيّات وشراء عبيد مسيحيّين. كما حظر على المسيحيّين مصادقة اليهود والدخول إلى مجامعهم أو الاحتفال

(١) كورنثوس الأولى ٩: ٢٢-٢٣.
(٢) كورنثوس الأولى ٩: ٢١.
(٣) فريد غيث، **فلسفة الدين كسبيل إلى الحوار المسيحيّ الإسلاميّ**، مصدر سابق، الصفحة ٢٠.
(٤) أعمال الرسل ١٥: ٢٠.
(٥) جورج طرابيشي، **مصائر الفلسفة بين المسيحيّة والإسلام** (بيروت: دار الساقي)، الصفحة ٥٥.
(٦) المصدر نفسه، الصفحة ٦٢.
(٧) المصدر نفسه، الصفحتان ٦٤-٦٥.

بأعيادهم[1]. ولم يقف هذا الموقف السلبيّ عند اليهود، إنّما تعداه إلى المسيحيّين المخالفين للكنيسة الرسميّة.

ج. اللقاء بين الإسلام والمسيحيّة

لم يكن اللقاء بين الإسلام والمسيحيّة، يقوم على التسامح والحوار بشكل دائم، إنّما مرَّ بمراحل متعدِّدة، وسنكتفي في خضمِّ هذا البحث بإلمامة سريعة، تُظهر العلاقة بين هذين الدينين وكيفيّة تأرجحها.

١. مرحلة الدعوة

وهي المرحلة التي تلت البعثة النبويّة الشريفة، وتميّزت بكونها مرحلة دعوة إلى الدين الإسلاميّ، وهنا نلاحظ مبادرات عدة، حيث وجّه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الرسل إلى الحُكّام، ودعاهم إلى دخول الإسلام أو اللقاء حول توحيد الله. وقد تطوّر هذا الأمر في النصوص اللاحقة حيث إنّ أوّل لقاء رسميّ بين المسيحيّة والإسلام كان حين استقبل النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وفدَ مسيحيّي نجران في المدينة، وهذا اللقاء حمل معه معالمَ كيفيّة التصرُّف مع الآخر في الحوار، حيث لم يستقبلهم بثيابهم الرسميّة، بل بثيابهم العاديّة، ولما حضر وقت الصلاة، أذن لهم بالصلاة في المسجد على الرغم من اعتراض بعض الصحابة، وتوافقوا بعد دعوة المباهلة وعقدوا صلحاً مع المسلمين تمثّل فيما بعد بمبدإ الجزية[2]. وهذه الروحيّة الإسلاميّة لم تأتِ من فراغ، فالإسلام قد اعترف بالإرث الإبراهيميّ، وجعله مرحلة من مراحل تطوُّره، ويلاحظ أنّ القرآن لم يقف من المسيحيّة موقفاً سلبيّاً كدين ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ**﴾[3]، إنّما أثنى على الرهبان ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[4]، وهذه الآيات تظهر نزعة إيجابيّة تجاه السلوكيّات المسيحيّة، وإن لم يقرّ

(١) جون لوريمر، **تاريخ الكنيسة** (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٨)، الجزء ٣، الصفحة ١٢٩.

(٢) فاروق حمادة، **العلاقات الإسلاميّة النصرانيّة في العهد النبويّ** (دمشق: دار القلم)، الصفحات ٧٠–٧٥. وجاء في وصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً»، أو قال: «اغزوا باسم الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم؛ ثمّ ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين وإن دخلوا في الإسلام، فإن فعلوا فأخبرهم أنّ لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الإسلام، ولا يكون لهم من الفيء ولا في القسمة شيء، إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبَوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، فإن أبَوا، فاستعن عليهم بالله وقاتلهم». المصدر نفسه، الصفحة ٥٧.

(٣) سورة **المائدة**: الآية ٨٢.

(٤) سورة **المائدة**: الآية ٨٢– ٨٣.

لهم رؤيتهم العقائديّة.

٢. مرحلة الخلافة الراشدة

لم تشهد هذه المرحلة تحوُّلاً كبيراً في العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة، فقد أقرّ الخلفاء ما جاء به الإسلام، وأقرّوا العهود التي أعطاها الرسول صلّى الله عليه وآله للنصارى، وهذا ما تشهد عليه الكثير من النصوص الواردة من تلك الحقبة، فقد جاء في عهد أبي بكر،

هذا ما كتب به عبد الله، أبو بكر خليفة محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأهل نجران، أجارهم الله بجوار الله، وذمّة محمّد النبيّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على أنفسهم، وأرضهم ومساكنهم، وأموالهم، وحاشيتهم وعبادتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وأساقفتهم، ورهبانهم، وبيعهم، وكلّ ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يغيَّر أسقف من سقيفاه ولا راهب من رهبانيّته، ووفى لهم بكلّ ما كتب محمّد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحقّ[1].

والملاحظ أنّه في هذه المرحلة، أخذت تظهر بوادر نزعة أقوميّة عربيّة حيث جرى تمييز المسيحيّين العرب، فلم تؤخذ منهم الجزية.

١. الإسلام خارج جزيرة العرب

ومع توسُّع الدول الإسلاميّة، وتمدّدها إلى خارج الجزيرة العربيّة، عرفت العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة مرحلة جديدة، حيث اقتضت ضرورات تسيير الدولة اعتماد الحكّام المسلمين على الكفاءات العلميّة والإداريّة في الدول البائدة، وهذا التماسّ بين الديانتين أوجد جدلاً دينيّاً كبيراً، وقد حفّز هذا الجوُّ سؤال المسيحيّة نفسها عن سبب هذا الواقع الذي وجدت نفسها به، وهو ما أدّى إلى استنفار العقول لمواجهة الإسلام والحفاظ على الذات. فكانت كتابات يوحنّا الدمشقيّ التي تعتبر أولى انتقادات المسيحيّة للإسلام، حيث نظر إلى الإسلام كهرطقة دينيّة، وأطلق عليه لقب «السراقينيّ» نسبة إلى سارة زوجة النبيّ إبراهيم عليه السلام، التي أرسلت إسماعيل إلى الصحراء خاليَ الوفاض، ويكتب يوحنا الدمشقيّ بشأن ظهور الإسلام قائلاً،

كان العرب يزاولون عبادة الأوثان علناً إلى عهد هرقليوس. ومنذ هذا العهد وحتّى أيّامنا هذه، قام في ما بينهم نبيّ منتحلٌ (النبوّة) اسمه محمّد، والذي قد أنشأ هرطقته الخاصّة بعد أن تعرّف بالصدفة على العهدين القديم والجديد، وبعد أن تحاور مع

(١) فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، مصدر سابق، الصفحة ١١٩.

راهب آريوسيّ...[١].

وهـذه النظرة التي أشـاعها يوحنّا الدمشـقيّ، سـببت الكثير مـن اللبس المتعلق بالنظرة المسـيحيّة للإسـلام، فهي وبسـبب رغبتها في الدفاع عن العقيدة المسـيحيّة، أخذت تُؤوِّلُ الكثير من الأمور الإسلاميّة، وتعطيها بُعداً وثنيّاً.

فيوحنّا الدمشـقيّ، وعلى الرغم من عمله في حضـن الدولة الإسـلاميّة، بقي يكنّ كراهيّةً تجاه العرب المسـلمين، ربما لم تظهر هذه النظرة إلى العيان إلّا بعد تقاعده وانخراطه في دير القدِّيس سابا بفلسـطين، حيث كان يدعو في صلاته للإمبراطور البيزنطيّ بالنصر على الأعداء، متمنّياً من خلال شـفاعة الثيوتوكوس، أن يسـحق «أمّة البرابرة» بقدميه. ولا يوجد من شك أنّه كان يقصد بالبرابرة هنا المسلمين، حيث يقول «إنّهم شعب الإسماعيليّين، الذين يحاربون ضدّنا»[٢]. وهذا الجوّ الموغل في العـداء للإسـلام، أنتج بيئـة ثقافيّة تأثّرت به، فظهرت شخصـيّة ثيودور أبو قرّة المتقن للفلسـفة اليونانيّة، لا سـيّما الأرسـطيّة، والذي، عندما أراد أن يناقش الإسـلام، ذهب إلى تعبيرات شـعبيّة، وتكلّم بلغة السوق بعيداً عن العلميّة. ويقارن توما الأكوينيّ، في أحد كتبه، ما بين الانتشار السلميّ للمسـيحيّة والانتشار الإكراهيّ للإسـلام. فهو يفسِّر ظاهرة انتشار الإسلام على أساس أنّ المؤمنين بدعوة الرسـول العربيّ أوّلاً كانوا من الناس الجَهَلة البسـطاء، العائشين في الصحراء والذين لم يسبق لهـم أن عرفـوا أيّ تعليم أو عقيدة إلهيّة. وعن طريق أولئك البدو، أجبر محمّد بقيّة الناس في المنطقة على الامتثال لشريعته بقوّة السيف[٣].

وهكـذا يمكن القول، إنّه من خلال كتابات يوحنّا الدمشـقيّ وثيودور أبو قرّة وُلِد نوع جديد من الأدب الدينيّ في بلاد الشـام مناهض في جوهره للإسـلام، وهذا مـا تبلور في وقت لاحق من خلال المناظرة التي دارت بين عبد الملك بن مروان وراهب يدعى ميخائيل السـابيّ، أو المراسـلات الدينيّة–الرسـميّة، التـي حفظها المؤرِّخ الأرمينيّ جيفوند، بين الخليفـة الأمويّ عمر بن عبد العزيز والإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإيسـوريّ، أو المحاورات الدينيّة الشعبيّة، كحوار بين ساراقينيّ ومسـيحيّ – الذي مـن المحتمل أنّه كان معاصراً أو تالياً لمجادلة عمر بـن عبد العزيز مع ليو الثالث – وأخيراً قصص الشهداء والقدِّيسين المسيحيّين الذين استشهدوا على أيدي المسلمين كما صوّرتهم سيرهم[٤].

(١) انظر، جوزف كميل جبارة، **علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية**، مصدر سابق، الصفحة ٣٣.
(٢) طارق منصور، **المسلمون في الفكر المسيحيّ العصر الوسيط** (القاهرة: مصر العربيّة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، الطبعة الأولى، الصفحة ٨١.
(٣) صلاح أبو جودة اليسوعيّ، **واقع الحوار الإسلامي المسيحيّ عشية المجمع الفاتيكاني الثاني** (بيروت: دار المشرق) الصفحة ٣٣.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٨٤.

وفي مقابل المسيحيّة، انبرت الأقلام الإسلاميّة في مواجهة الكتابات المسيحيّة، فشاعت الكتب الجدليّة، فنقرأ عن مجموعة من علماء المسلمين انبروا للردِّ على الكتابات المسيحيّة، وتتحدّث المصادر عن أعمال ضرار ابن عمرو القاضي الذي كتب أوّل عمل جدليّ– إسلاميّ ضدّ المسيحيّة، والقاسم بن إبراهيم الرسيّ ضمن رسالة قصيرة تتحدث عن مفهوم التثليث والتوحيد[١]، والجاحظ الذي ترك رسالة أسماها «الردّ على النصارى»[٢]، واليعقوبيّ الذي أفرد في تاريخه مكاناً للحديث عن المسيحيّة، وتحدّث عن الأناجيل الأربعة[٣]، والمسعودي الذي تناول المسيحيّة في «رسالة التنبيه والإشراف». وكلّما كانت تتقدّم الفترة الزمنيّة في التعايش الإسلاميّ كانت تتطوّر وسائل الجدل، حيث نجد أبا الريحان البيرونيّ، قد استفاض بالحديث عن المسيحيّة وفِرَقِها وأعيادها في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»[٤]، وكتب ابن حزم كتاباً حول الملل والنحل أسهب فيه بالحديث عن المسيحيّة وحاول من خلاله تقديم صورة واقعيّة عن المسيحيّة، وكتب أبو حامد الغزالي رسالة في هذا الموضوع أسماها «الردّ الجميل لإلهيّة عيسى بصريح الإنجيل»[٥]، وكتب ابن عبيدة الأنصاري كتاب «مقاطع الصلبان في الردّ على عبدة الأوثان»، بالإضافة إلى أعمال كتبها ابن قيّم الجوزيّة وابن تيميّة.

ويلاحظ القارىء لهذه النقاشات طابعها العقائديّ البحت، ويمكن أن نرصد عدداً من النقاط التي تميّز الحوار الدينيّ في تلك المرحلة:

هو حوار حول مسائل دينيّة، كلّ طرفٍ يحمل رؤيته الخاصّة حول الآخر، وكلّ منهما لا يفقه اللغة اللاهوتيّة التي يتكلّم بها الآخر، فالمسيحيّة كانت تتكلّم اللغة اليونانيّة، وترفض الأخذ بغيرها، ولم يكن هناك مراجع عربيّة تتحدّث حول هذه الموضوعات على الرغم من الوجود العربيّ، وهذا الأمر أبعد المسلمين عن فهم حقيقة المسيحيّة السائدة في بلاد الشام، بينما كانت المسيحيّة تعتمد على النصوص اليونانيّة واللاتينيّة، فهم لم يعودوا إلى النصوص العربيّة، على الرغم من معرفتهم لهذه اللغة، إنّما استقوا معلوماتهم من شذرات تُرجمت إلى اليونانيّة مع وجود أخطاء كبيرة فيها على صعيد الترجمة.

التناقض في الرؤية التاريخيّة للحيّز مكان النزاع، فالعربيّ والمسلم عندما أتوا إلى بلاد الشام ومنها انطلقوا إلى العالم، كانوا يريدون العودة إلى أرض ميراث إبراهيم، بالتالي فهي عودة إلى أرضه،

(١) انظر، محمد عمارة، **الرسائل التوحيديّة** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢)، الجزء ٢.
(٢) انظر، الجاحظ، **الرسائل الكلاميّة**، (بيروت: دار الهلال).
(٣) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبيّ، **تاريخ اليعقوبيّ** (بيروت، دون تاريخ)، الجزء ١.
(٤) أبو ريحان البيروني، **الآثار الباقية من القرون الخالية**، تحقيق خليل عمران المنصور (بيروت، ٢٠٠٠).
(٥) أبو حامد الغزالي، **الرد الجميل لإلهيّة عيسى بصريح الإنجيل** (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٩).

ولكنّ المسيحيّة نظرت إلى تلك الأرض من خلال قداسة الشهداء الذين سقطوا عليها، من هنا لم تستطع أن تفهم الانتصار الإسلاميّ، إنّما اعتبرته نوعاً من العقاب الإلهيّ لا بدّ من أن يزول مع عودة حكام بيزنطية إلى رشدهم.

اعتبار الحوار ملتقى لتسجيل النقاط والمواقف على الآخر، حيث عمل كلٌّ طرف على تسجيل الحوار مع الآخر، واعتبار نفسه منتصراً.

ولقد تطوّر الحوار الإسلاميّ المسيحيّ على مرحلتين؛ في المرحلة الأولى طرحت بعض القضايا، التي أثارها يوحنّا الدمشقيّ، وهي: (أ) قضيّة الخير والشرّ وأسبابهما؛ (ب) ألوهيّة المسيح؛ (ج) موت عيسى أو الثيوتوكوس؛ (د) تكوُّن الدودة في الجرح؛ (هـ) تعميد المسيح. أمّا المرحلة الثانية، والتي ابتدأت في القرن التاسع، فشملت الموضوعات التالية: (أ) ألوهيّة المسيح وعلاقته بالآب؛ (ب) مسألة الأقانيم الثلاثة، الآب والأبن وروح القدس؛ (ج) مسألة الختان؛ (هـ) ذكر محمّد في الأناجيل، هل هذا الأمر حقيقي؟ (و) موقف المسيحيّين من نبوّة النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ (ز) صلب المسيح وموته وقيامته من بين الأموات؛ (ح) علّة عدم اعتراف المسيحيّين بنبوّة محمّد؛ (ط) تحريف الإنجيل والتوراة؛ (ي) مسألة القضاء والقدر؛ (ك) موضوع القرآن؛ (ل) العنف في الإسلام؛ (م) موضوع الإباحيّة في الإسلام؛ (ن) علاقة الإسلام بالديانات السابقة.

ولم تأخذ هذه النقاشات شكلها اللاهوتيّ البحت، إنّما أخذت تتمظهر بمظهر الكتابات الفلسفيّة، خاصّة في الجانب المسيحيّ، الذي لجأ إليها في سبيل إعطاء مسحة فلسفيّة لبعض المقولات الدينيّة، ففي القرن التاسع استخدم حبيب بن خدمة أبي رائطة التكريتيّ [مسيحيّ] الوسائل الجدليّة والبراهين المنطقيّة المعروفة عند فلاسفة اليونان مكيّفاً إيّاها مع متطلّبات علم الكلام في عصره: فكانت له مساهمات في بحث قضيّة التوحيد والتثليث[1]، وكأنّهم كانوا يريدون أن يوجدوا عنصر تفاضل بعدما بلغت النزعة الكلاميّة موقعاً متقدّماً، وهم يريدون من خلال الفلسفة أن يزدروا تلك النزعة عبر العمل على قطاع تمرّسوا فيه.

٤. الحروب الصليبيّة

قبل الدخول في الحروب الصليبيّة، لا بد من التوقُّف عند شخصيّة شارلمان، الذي باشر الحروب الدينيّة ضدّ المسلمين من أجل إخراجهم من أوروبا، وهذه الحروب حفَّزت الشعراء على التغنّي بها

(١) راجع: طارق متري، **المسيحيّون الشرقيّون والإسلام**، ضمن كتاب «النظرات المتبادلة بين المسيحيّين والمسلمين» (البلمند: جامعة البلمند، ١٩٩٧)، الصفحة ٨٩.

في الملحمة التاريخية «أنشودة رولان»، والتي يصوّر فيها الشاعر التضحيات التي قدّمها شارلمان من أجل تحقيق المثل العليا، الدين والقتال. وفي خضـمّ هذا الأمر، يبدأ بتقديم رؤية مشوّهة عن الإسلام تُصـوِّره كديانة هرطوقيّة إباحيّة، وهكذا يدخل الكره الأوروبيّ تجاه المسلمين الأدبَ الشعبيّ ليعبِّر عـن مكنون في النفس الأوروبيّة، يسـعى إلى اسـترداد كلّ ما فتحه العرب، وهو ما تعكسـه خاتمة «أنشودة رولان» من سقوط مدينة سرقسطة الأندلسيّة وهزيمة المسلمين هناك.

وهـذه الرؤيـة التي أطلقتها العقليّـة الأوروبيّة، تمظهرت من خلال تدفُّـق العنف الأوروبيّ إلى الشرق، وشـكّلت الحروب الصـليبيّة نقطة الذروة، حيث مثّلت القطيعة مع الآخر عنوان المرحلة، فانطلـق الأوروبيّون من ما أشـاعه بعض المسـيحيّين المشرقيّين من صـورة سـلبيّة للإسـلام. يقول جورافسكي،

وإذا كنـا نتّفق على واقعة أنّ التصـوّرات الأوروبيّة للإسلام تشكّلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإنّنا يجب أن نشير إلى حقيقة أنّ هذه التصوّرات تكوّنت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفيّة التفسير المسيحيّ الشرقيّ للعقيدة الإسلامية[1] كارتكازٍ لشنّ الحملات الصليبيّة.

يقول البابا أوربانوس،

يـا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينيّة، أنباء محزنة تعلن أنّ جنسـاً لعينـاً أبعـد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلـك البلاد، بلاد المسيحيّين، وخرّبها بما نشـره فيها من أعمال السلب والحرائـق؛ ولقـد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذّبوهم أشنع التعذيب. وهم يهدمون المذابح في الكنائـس، بعد أن يدنّسوها برجسهم، ... فليُثِر همَّتكم ضريح المسيح المقدس ربّنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدّسة التي لُوّثت[2].

هذا بالإضافة إلى ما أثارته عقليّة الشعراء من ملاحم شوّهت النظرة الأوروبيّة إلى المسلمين.

وهذه الدعوة، وإن كانت تحمل في طيّاتها أمراً تعبويّاً يهدف إلى إثارة حماس المسيحيّ للدخول إلى المعركة ضدّ المسلمين، ولكنَّها ما كانت لتجد صدى لها، لو لم تكن قد عُزّزت بصورة نمطيّة عن الإسـلام تظهره كديانة وثنيّة. فالإسلام بالنسبة لهم كان حركة شيطانيّة. يقول راهب دومينياكانيّ، معاصر لدانتي، زار بغداد وعاد إلى أوروبا بحكاية خرافيّة جاء فيها،

بمـا أنّـه لم تكن للشيطان قدرات ذاتيّة كافية لوقف انتشـار المسيحيّة في الشرق اخترع كتاباً، يمثّل حلقة وسطى بين العهدين

(١) ميخائيل زابوروف، **الصليبيّون في الشرق** (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٦)، الصفحة ٧٠.
(٢) المصدر نفسه، الصفحات ٣١-٣٢.

القـديم والجديـد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشرّيرة وسيطاً من طبيعة الشيطان ذاته. أمّا الكتاب فهو القرآن، بينما الوسيط هو النبيّ...الذي يجسّد دور المسيح الدجّال[1].

فالمسـيحيّة الغربيّة لم تكن رحيمة مع الإسـلام، فهي اعتبرته عدوّها الأوّل، وهذا الأمر لم تسـتأثر به كنيسـة دون أخرى، فحتّى الكنائس الإصـلاحيّة حملت بذور هذه الرؤية، وهذا ما يعكسـه رأي اللاهوتيّين الذين اعتبروا «أنّ الإسلام ينبغي أن يواجَه عسكريّاً، ولا جدوى من محاولة إنقاذ أرواح الهالكين من أتباعه عن طريق التبشير»[2].

ويلاحظ الباحث في موضوع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ أثناء الحروب الصليبيّة الأمور التالية:

أ- الإسلام هرطقة مسيحيّة.

ب – الإسلام دين شهوانيّ.

ج – الإسلام ديانة عنف.

د – محمّد ليس بنبيّ.

يذكر أخيراً، أنّ الحروب الصـليبية، تركت أثراً على الكنيسـة، فدفعتها للتفكر بطبيعة الإسلام، وهذا ما دفع ثلاثةً من كبار اللاهوتيّين الغربيّين، من موقع اليأس من ضرب الإسـلام عسـكريّاً، إلى التفكير في طريقة سلميّة لاستيعاب المدّ الإسلاميّ. وكان أول هؤلاء يوحنا السيجوفيّ، الذي جاهد طويلاً لترجمة القرآن الكريم ثانيةً عام ١٤٥٥م إلى اللاتينيّة، تمهيداً لعقد مؤتمر إسـلاميّ مسـيحيّ، شـامل يدعو فيه اللاهوتيّـين الكاثوليك الذين عرفوا الإسـلام جيداً لاعتناق الدين الصـحيح، أي الكاثوليكيّـة. وكان ثاني هؤلاء نيقولاس فون كيس، الذي اسـتجاب لنداء يوحنّا صـديقه، فكتب مؤلّفاً ضـخماً درس فيه النصّ القرآني دراسة داخليّة مفصّـلة، إرشاداً للكهنة المسيحيّين في جدلهم مع المسـلمين. أمّا ثالثهم فكان إينياس سـلفيوس، الذي صـار بابا بعد ذلك باسم بيوس الثاني، فقد اسـتجاب لنداء يوحنّا أيضـاً بارسال رسالة بشوشة إلى السـلطان محمّد الفاتح يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحيّة مقابل السيادة على العالم[3].

قد يوحي الكلام السـابق أنّ الإسـلام والمسـيحيّة لم يعرفا نقطة التقـاء، وكأنّ الأمر عبارة عن حـرب دائمة بـين منظومتين من عوالم مختلفة، فهنـاك العديد من المواقف التي تتّسـم ببعض المرونة

(١) أليكسـي جورافسـكي، **الإسلام والمسيحيّة**، تعريب خلف الجراد (الكويت: المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون، ١٩٩٦)، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٥، الصفحة ٧٤.

(٢) ريتشارد سوذرن، **صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى** (بيروت: معهد الإنماء العربيّ، ١٩٨٤)، الصفحتان ١٦–١٧.

(٣) طارق منصور، **المسلمون في الفكر المسيحيّ العصر الوسيط** (القاهرة: مصر العربيّة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، الطبعة الأولى.

وأبرزهـا ما جاء عن أصـحاب النزعـة الروحيّة في الطرفين، فهناك موقف فبيـار أبيلار (١٠٧٨–١١٤٢) الذي رفض في مؤلّفه «اللاهوت المسـيحيّ» أن يكون المسـيحي وحـده مهيّأً للخلاص، ووصف هذا الاعتقاد بأنّه مناف للعقل، فالله، عنده، يحبّ جميع البشر[١]، وأرسل البطريرك فوتيوس رسـالة إلى الخليفة المقتدر يحدّثه عن كيفيّة التقاء الخصـال الحسنة بين الناس، يقول، «إنّ الثبات في العقل والسلوك والإنسانيّة وغيرها من الخصال التي تزيّن الطبيعة البشريّة تثير عند الذين يحبّون الخير حبّاً نحو الذين لهم الخصال نفسها، رغم الاختلاف في الإيمان بينهم»[٢]. وهذه المقاربة نجدها عند غريغوريوس بالاماس الذي، وإن تناظر مع المسـلمين في إحدى رسـائله الرَعَويّة، حرص على إبقاء البـاب مفتوحـاً أمام التلاقي وذلك من خلال إبرازه الوجه الإيجابيّ لما يقول الإسـلام عن المسـيح والمسـيحيّة. كما نجد عنده إشـارات إلى منزلة الإسـلام في المقاصـد الإلهيّة من حيث تأكيده على الوحدانيّة ضد الوثنيّة وعلى نحو يفوق ما جاء في الحكمة اليونانيّة[٣].

كما أنّ البابا غريغوريوس السـابع (١٠٧٣–١١٤٢)، عـزّز العلاقة بينه وبين ملك موريتانيا، ووجّه إليه رسالة يقول فيها: «يجب علينا، نحن وأنتم، أن نعطي للأمم الأخرى مثالاً على محبّة الله، لأنّنا نؤمن ونعترف بإله واحد ولو بطرق مختلفة، ونسبّحه ونعبده كلّ يوم كخالق الأزمنة كلّها وسيّد هذا العالم»[٤].

٥. سقوط القسطنطينيّة والمسيحيّة المشرقيّة

أحدث سقوط القسطنطينيّة والحروب الصليبيّة هزّة عنيفة في المسيحيّة المشرقيّة، ممّا دفعها إلى تكوين هويّتها الخاصّـة المندمجة بمجتمعاتها، ففي السـنة التي سـقطت فيها، كتب جورج التريبيزونديّ إلى السـلطان محمّد الثاني يقترح عليه أن يدعو إلى مجمع إسـلاميّ–مسيحيّ يشترك فيه أهل الشرق كلّه، ويهدف بالنهاية إلى وحدة الجنس البشريّ تحت راية إيمان واحد. وتتأسّـس هذه الدعوة على أنّ الله أعطى القسـطنطينيّة للسلطان الشابّ لكي يحقّق هذه الرسـالة النبيلة. وأمّا السبيل إليها فهو إنشاء امبراطوريّة شرقيّة عظيمة حيث القوّة الفتيّة للشعب التركيّ «تطعّم» الشجرة ذات الجذور العميقة، أي الحضارة البيزنطيّة المسيحيّة[٥].

والمسيحيّة المشرقيّة، عملت على البرهنة على أنّ المسلمين والمسيحيّين على اتّفاق في الأساسيّات

(١) لطفي الحداد، **الإسلام بعيون مسيحيّة** (بيروت: الدار العربيّة للعلوم، ٢٠٠٤)، الصفحة ١٠٨.
(٢) طارق متري، **المسيحيّون الشرقيّون**...، مصدر سابق، الصفحة ٩٣.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٩٣.
(٤) لطفي الحداد، **الإسلام بعيون مسيحيّة**، مصدر سابق، الصفحة ١٠٩.
(٥) طارق متري، **المسيحيّون الشرقيّون**...، مصدر سابق، الصفحة ٩٧.

وأنّ الخلافـات في معظمهـا تـردّ إلى عدم الانفتاح علـى الآخر، مع الحفاظ على المسـيحيّة كجذر حضاريّ يستطيع أن يستوعب الإسلام، وهو ما يؤكّد عليه جورج أميروتزاس.

وكلّما كانت تتعايش المسيحيّة المشرقيّة في بيئتها، كانت تذهب باتّجاه تثبيت بعدها، وهذا الأمر جعلها تأخذ مواقف معادية للاتين والكنيسة الغربيّة.

الخاتمة

وهكذا، انتهت المرحلة الأولى من حوار الدهشـة والغربة، فالمسـيحيّ المندهش من واقعه كان عليه العيش في غربة مع الآخر والقبول به مرغماً، فعبّر عن هواجسـه وقلقه، واسـتحضر الآخر بصـورة مريبـة حوّلتـه إلى وحش يريد الانقضـاض عليه، وهذا التصـوّر نقله إلى خارج حـدود الذات إلى الآخر، الذي اسـتخدمه ليبرّر حروبه، التي أيقظت المسلم وأدهشته ونقلته إلى غربة السؤال ومنفى القلق.